

# "عائدٌ من مواقع الأبرتهايد"



سمير جبور

[samirjabbour@sympatico.ca](mailto:samirjabbour@sympatico.ca)

على الرغم من أن زيارة الوطن الحبيب فلسطين، بعد سنين عديدة من الأختراب ، تبعث في النفس الفرح والسرور بقاء الأهل والأصدقاء والأحباء، وتنعش الحنين الى ذكريات الطفولة، الا أن جولة في ربوع الوطن، لا تخلو من المنغصّات والحسرات وحتى القهر. فعندما تتجول في المدن العربية المدمرة، وتزور الكنائس والجوامع التي حولها الأحتلال العسكري الى خرائب واطلال، تصاب بالذهول، وينتابك شعور بالأحباط وتتساءل كيف ان بعض هذا العالم صدق بأنه قامت على أنقاض فلسطين وشعبها وتاريخها وحضارتها "واحة من الديموقراطية"؟ في حين انه يتجسّد أمامك في كل مكان تذهب اليه آثار التطهير العرقي. فعلى أنقاض كل قرية او مدينة عربية تقوم مستعمرة يهودية تضم مهاجرين جلبوا من جميع أنحاء المعمورة، وسكان البلد الأصليون يقعون في المخيمات على مسافة بضعة كيلومترات.

ومما يثير في النفس الأمتعاض والقنوط عندما تزور، مثلا، راس الناقورة وتقف عند البوابة المغلقة التي تفصل لبنان عن فلسطين، وتجد امام تلك البوابة الموصدة جنديا وحيدا من يهود الفلاشا مدججا بالسلاح، يحرس هذه البوابة الرئيسية التاريخية التي كانت معبرا تجاريا وثقافيا تنتقل عبره تجارة وثقافات سورية الطبيعية كلها.

ثم تعرج من هناك على قرية البصّة العربية لتشاهد ما يقشعر له الأبدان. آثار المنازل المدمرة، أكوام من الحجارة كانت منازل لعائلات عريقة، او مؤسسات ثقافية اشتهرت بها البصة، ليتمد

بصرک نحو أراضيها الشاسعة المصادرة التي قامت عليها مستعمرة "بيتسات". ثم تقف امام كنيسة البصة التي اصبحت خرابا مهجورا، ومدرستها التي لاتزال جدرانها ترتفع على الأرض، وتحيط بها الأعشاب البرية، تظن انك تقف امام ما دمره هولاء الحاكم المنغولي الذي حرق مكتبة بغداد ودمر مساجدها وقصورها.

وعندما تقترب من مناطق مظلمة تدرك انك تدخل قري عربية. وعندما تتجول فيها تشاهد الأهمال وانعدام خطط تنظيم المدن. ومنذ قيام اسرائيل لم تقم قرية او مدينة عربية واحدة، في حين قامت ولا نزال تقام مئات المستعمرات والمدن اليهودية على اراض اغتصبت من العرب أصحابها الشرعيين.

عند الحاجز العنصري - يا للهول

ربما من الصعب على المرء ولا سيما الأجنبي، ان يلاحظ مدى عنصرية هذه الدولة، الا اذا مر في احدى الحواجز العسكرية التي تفصل بين مناطق السلطة الفلسطينية والمناطق اليهودية. فخلال زيارتنا للأراضي المقدسة، قررنا زيارة كنيسة المهدي في بيت لحم. فكان لابد الا أن نمر بحاجز عسكري. توقفنا على الناحية اليمنى من الحاجز ننتظر اكثر من نصف ساعة دون ان نتلقى إشارة بالمرور. فكان أحد الجنود يسمح للسيارات القادمة من الجهة الأخرى بالمرور، ولكنه كان يتأمل في وجوه ركبائها. فاذا لاحظ من سحنة وجوههم انهم عرب يأمرهم بالنزول من السيارة ويخضعهم للتفتيش.

فبعد طول إنتظار، أوما لنا هذا الجندي بالتقدم، فطلب من كل واحد منا ابراز هويته الاسرائيلية ففعلنا، سوى زوجتي التي لا تملك هوية اسرائيلية أعطته جواز سفرها الكندي الا ان هذا الجندي الذي كانت ترتسم على محياه كل علامات اللؤم والكرهية والحقد على البشرية، متشربا بتعاليم العنصرية خلال خدمته العسكرية، سأل هل أنتم "نوتسريم" - مسيحيون؟ قلت له إننا كنديون نود زيارة كنيسة المهدي! فأجاب: ان من يحملون الهويات الاسرائيلية يستطيعون المرور، أما صاحبة الجواز الكندي لا يمكنها المرور، فإشار اليها بالرجوع. ويا لهول الصدمة ، كيف نرجع بعد أن قطعنا اكثر من 180 كيلومترا. لماذا لا يسمح لسيدة لا تبدو عليها اية علامة على انها " إرهابية " او " مخرّبة" (سوى الشغف لزيارة قبر المسيح) أن تدخل اراضي السلطة؟ فعندما سألناه عن

السبب، أجب لنا هذا المسخ العنصري: الأجانب لا يستطيعون المرور من هنا! حتى الكندية من اصل فلسطيني لا يسمح لها بالمرور؟

وأردت ان اقول له: إن حكومة كندا ورئيسها يمجدون ديموقراطية اسرائيل ويتغزلون بها ليلا نهارا، ويعتبرون اسرائيل معصومة عن الخطأ، وهذه لا تعترف بالجواز الكندي؟ وحتى العاملة في محطة القطار لا تريد الاعتراف ببطاقة المسنين الكندية. ثم أخذت أتساءل: ماذا لو عرف رئيس حكومتنا بهذه التفاصيل؟

شاهدت كل ذلك شخصيا وكانت هذه اول تجربة لي على حاجز عنصري. وربما لو روى لي شخص آخر هذه التجربة لظننت أنه يبالغ.

### جدار الفصل: مسخ عنصري آخر

ما العمل؟ كيف ندخل بيت لحم مهد المسيح، الذي كان محجا مفتوحا لكل أمم الأرض عندما كانت هذه المدينة تحت الحكم العربي او حتى الأنجليزي او حتى العثماني؟ من اين ندخل ونحن نسير في محاذاة جدار الفصل العنصري. فهذا الجدار مسخ عنصري آخر. استطعنا في النهاية ايجاد مدخل آخر الى بيت جالا. وفيما نحن نسير في أحد شوارع بيت جالا ( الواقعة تحت حكم السلطة) شاهدت زمرة من الجنود الاسرائيليين يقتحمون منزلا جميلا مبني بالحجر الأبيض ويحاولون خلع الباب .. ولما سألت أحد أهالي بيت جالا ان يفسر لي هذه المشهد قال" هذا بالاتفاق مع السلطة. دمرونا بهال الإتفاقيات!"

إن مشهد الجدار الفاصل يثير في نفسك الرعب والقرع في أن معا. انه يزوي مثل الحية الرقطاء ينهش من الأراضي العربية ويقطع أوصال الكثير من العائلات العربية. فقد روى لي احد سكان بيت جالا ان الجدار يمر في منتصف ارضه حيث اصبح منزله وراء الجدار وارضه من الناحية الأخرى. وكم كنت أود الا اثقل على القاريء الكريم بالتفاصيل. ولكن من المفيد إعطاء فكرة عن جزء بسيط من هذا الجدار الذي يهدف الى إيجاد منطقة عزل تمتد على طول الخط الاخضر من شمال الضفة الغربية الى جنوبها، مغتصبة أكثر الأراضي الزراعية خصوبة، وعازلة العديد من

التجمعات الفلسطينية ضمن معازل كثيرة، ومقوضة بذلك أية إمكانية لقيام دولة فلسطينية مستقلة ومتصلة جغرافيا ومستدامة اقتصاديا.

طول جدار العزل العنصري في محافظة بيت لحم 77.9 كيلومترا حيث يمتد من مدينة بيت ساحور، ويقطع المدخل الشمالي لمدينة بيت لحم، ويمر نحو الجزء الغربي من مدينة بيت جالا، ضاماً مستوطنتي جيلو وهار جيلو متجها نحو قرى الريف الغربي، الولجة، بتير، نحالين، حوسان وواد فوكين ووصولاً إلى مستوطنات غوش عتصيون في الجنوب. تم بناء 25.3 كم من الجدار ويوجد 6.9 كم من الجدار في طور البناء كما و يوجد 45.7 كم من الجدار في طور البناء. سيعزل الجدار ما مساحته 160647 دونما (160.7 كيلو مترا مربعا) من أراضي محافظة بيت لحم. هذا و سيعمل الجدار على عزل قرى الريف الغربي، بتير، حوسان، نحالين، واد فوكين، خربة عفانة، خربة بيت زكريا و خربة البلوطة في معزل كبير، بينما يضع الجدار أيضا قرية الولجة ضمن منطقة عزل خاصة بها و ذلك بتطويقها بجدار الفصل من جهاتها الشرقية، الشمالية والغربية بالإضافة إلى تطويقها بشارع أمني تحت سيطرة الجيش الإسرائيلي من الجهة الجنوبية للقرية بمحاذاة شارع رقم 436 و الذي يعتبر المنفذ الوحيد المتاح لأهل القرية باتجاه بيت لحم. و بذلك يعزل الجدار 21000 فلسطيني في منطقة الريف الغربي عن باقي مناطق محافظة بيت لحم. كما تسيطر قوات الاحتلال الإسرائيلي على حركة السكان الفلسطينيين في المحافظة من خلال 47 حاجزا كانت قد أقامته قوات الاحتلال الاسرائيلي من خلال سنوات الاحتلال الاسرائيلي.

أعان الله الشعب الفلسطيني وطوبى للمعذبين على الأرض. قصة الممارسات العنصرية الصهيونية لا تنتهي عند هذا الحد. اذ ان الأستجواب ،خلال مغادرتك المطار، من قبل مهاجرة غير معروف اصلها من فصلها: أين كنت وما هو سبب زيارتك وهي لا تدرك انني عائد الى ارض آبائي وأجدادي، الى مرتع طفولتي لأستظل بشجرة زيتونتي. أما عن تفتيش الحقائب، وخضوعك لتفتيش مدل لا علاقة له بالأمن ولا بالسلامة حدث ولا حرج. إنها قصة أخرى يضيق المجال لها هنا.

ويا لويل من هو مصاب بمرض السكري ويحمل ماكينة فحص السكر وشهادات طبيّة.

اذ أن حامل ماكينة فحص السكر سرعان ما يشك في أنه يحمل قنبلة نووية مصغرة.

